مجلة دراسات معاصرة؛ دورية دولية نصف سنوية محكّمة تصدر عن مخبر الدراسات النقدية والأدبية المعاصرة المركز الجامعي تيسمسيلت الجزائر

تاريخ الإرسال: 01 أفريل 2018 تاريخ القبول: 22 ماي 2018

الأشكال التعليلية وأثرها في دلالة الخطاب القرآني

الدكتورة: بوهنوش فاطمة
جامعة تيارت (الجزائر).

الملخص

يتناول البحث منهجا مهما يتصل بنشاط النحاة في فهم الخطاب، وهو منهج تعليلي يتعدى الوصف للظواهر إلى التفسير لها، وقد تهيأ لهؤلاء من خلال اعتمادهم على هذا المنهج معرفة الأثر الذي يحدثه التعليل في النصوص، فكان ذلك بداية اتصال البحث النحوي بالمستوى الدلالي، لذلك يسعى الدارس إلى التحكم في ضبط دلالات الخطاب بمعونة الأشكال اللغوية، فهل التعليل كافيا لفهم الظاهرة الدلالية ؟.

الكلمات المفتاحية: التعليل، الخطاب، الدلالة، القاعدة، السياق.

Abstract:

The research deals with an important process which is related to grammarians act in understanding the discourse .This process is not based on the description of phenomena but on interpreting them. Relying on this process lead grammarians to know the impact of arguing in texts, and this was a beginning of a link between the grammatical research and semantic level. That's why the learner seeks to master how identify discourse significance thanks to language forms. Thus, can arguing be enough to understand the semantic phenomenon?

Key words: *Arguing, the discourse, the semantics, the basis, the context.*

1ـ المنهج النحوي من الوصف إلى التعليل :

تجمع الدراسات على أن العرب قد عرفوا بفرادة التناول للنصوص العربية، وذلك باتخاذهم الاستقراء أساس الوصف للظواهر اللغوية،فهو المنهج المكين والسند الصحيح لتعميم القوانين على الحالات، وصياغة النتائج في شكل قواعد أقدر على التعبير عما شاع واطّرد في كلام العرب،بل إنه المنهج الذي فرضته الدراسة العلمية للمادة اللغوية، يقوم على"دراسة العلاقات والروابط الموجودة بين هذه الظواهر (...) ومحاولة وضع قوانين تنتظم في سلكها تلك الظواهر الجزئية،أي استنتاج القواعد الكلية التي حكمت العلاقات بين الظواهر الجزئية، وكونت من ركامها... وحدة كلية متسقة الوجود"[1].

ولقد أحس النحاة أنفسهم بقيمة الوصف العلمي للمادة المدروسة القابلة للملاحظة والتأمل والتقعيد فكان "الوصف أداة البحث"[2] وجوهره، وسبيل التحري ومنبعه، وأداة التحليل الخالصة، وبهذا فالباحث يستخدم الأدوات للكشف عن خصوصيات المادة وقوانينها وأصولها في صورة نشاط وصفيّ تحدّده المادة نفسها، بينما المتكلم يراعي المادة ولا يراقبها، يحركها ولا يلاحظها بوضوح أو يدركها بعمق.

تأسيسا على ما سبق، يمكن القول إن وصف ظواهر اللّغة توخى هدفين أساسيين هما :ضبط النص المقروء وصونه عن الخطأ، وقد بلغ الباحثون في هذا مبلغا عظيما نتيجة الاتصال العميق بين اللّغة والقرآن الكريم اتصالا مباشرا، وتفسير وتسويغ القواعد والأحكام المستنبطة من تلك الظواهر، والتي أسلمت بالضرورة إلى نشوء التيار التعليلي في اللّغة.

ومن أجل هذا أثّر المنهج التعليلي على دراسة النحوين باعتبار النظرة العقلية أو الفلسفية التي سيطرت على اللّغة من جوانب مختلفة، وقد أدى بهم الأمر إلى التفكير فيما وراء الظواهر من أسرار وحكم تُتَصوّر وتُلتَمس، فكان التعليل وسيلة الفهم عن قرب وآلية

الإدراك للمعرفة النحوية، فمن "طبيعة الإنسان أن يسأل عن السبب ويستقصيّ العلّة، ومن طبيعة العقل أن يتتبع الجزئيات ويجمع ما تشابه منها ليطلق حكما عاما فيصل بالظواهر إلى القاعدة العلمية، ولذلك فليس غريبا أن يكون السؤال عن العلّة قديما وأن يكون التعليل مرافقا للحكم النحوي منذ وجد"[3].

وهذا يعني أن التعليل يقتضي التدّبر والتفكير مصداقا لقوله تعالى: ﴿**كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾[4]، وقوله عزّ وجلّ:﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾[5]،فالتدّبر علّة أليق بمعرفة أسرار الظواهر التي هي مثار الدرس العلمي، على أساس أنّه لا تخلو "المعرفة مهما كان نوعها من نزعة تبريرية، وعلم النحو يطمح إلى الشمول وإلى إبراز ما للقواعد التركيبية من وجاهة، وقد أيّد النحاة فكرة البحث عن تلك الأسباب التي تختفي وراءها الظواهر اللّغوية"[6].

وفي ظلال هذه النظرة، اعتنى النحاة بالتعليل لمعرفة ما في العربية من خصائص وأسرار وامتدت محاولاتهم لتشمل إدراك ما في الظواهر من دقائق تتعدّى الوصف فابتدأوا "في الوقت الذي يضعون فيه القواعد يبرّرون هذه القواعد، ويجعلونها ترتكز على دعائم محدّدة من الأهداف التي توخت اللّغة _في نظرهم_ تحقيقها، فأسلمت بالضرورة إليها، بعد أن صاغت أسسها، وهكذا نشأ التعليل في النحو العربي"[7].

ولعلّ انصراف النحاة إلى هذا الاتجاه انصراف عربيّ إسلاميّ أملته الظروف التي نشأ فيها التعليل، فقد استجاب هذا الأخير للظروف الدينية واللّغوية التي فرضت على الدارس يقظة العقل وحصافة النظر في التناول معرفة لأسرار الظواهر وقواعدها، لذا يرى أحد الباحثين أنّ "الإسلام ساعد على وجود حياة عقلية تهتم بالتعليل اهتماما واضحا حتى بات التعليل جزءا من نسيج الفكر الإسلامي"[8].

ويتضح من إشارات الخليل بن أحمد أهمية التعليل في تكوين المنهج النحوي المدعوم بالحكمة اللّغوية حين يقول:"إنّ العرب نطقت على سجيتها وطباعها، وعرفت مواقع كلامها، وقام في عقولها علله، وإن لم ينقل ذلك عنها، واعتللت أنا بما عندي أنّه علّة لما عللته منه، فإن أكن أصبت العلّة فهو الذي التمست، وإنْ تكن هناك علّة له فمثلي في ذلك مثل رجل حكيم دخل دارا محكمة البناء، عجيبة النظم والأقسام، وقد صحت عنده حكمة بانيها بالخبر الصادق أو بالبراهين الواضحة والحجج اللائحة، فكلّما وقف هذا الرجل في الدار على شيء منها قال:إنما فعل هذا هكذا لعلّة كذا وكذا، وسبب كذا وكذا، سنحت له وخطرت بباله محتملة لذلك، فجائز أن يكون الحكيم الباني للدار فعل ذلك للعلّة التي ذكرها هذا الذي دخل الدّار، وجائز أن يكون فعله لغيري تلك العلّة، إلا أنّ ذلك كما ذكره هذا الرجل محتمل أن يكون علّة لذلك، فإن سنح لغيري علّة لما عللته من النحو هي أليق مما ذكرته بالمعلول فليأت بها"[9].

إنّ موقف الخليل -فيما يبدو_ مبنيّ على التعليل النحوي الملازم للبحث اللّغوي، كما أنه يشير إلى أن هذه العلل قد أدركها العرب بعقولهم بموجب السجيّة، وانّ الاجتهاد في إيرادها والتماسها من متطلبات النشاط العلميّ والتي يظهر أنّها العلل الصحيحة التي استقرت في عقول النحاة، وطبيعة المرحلة آنذاك تومئ إلى انّ هذه العلل محلّ خلاف بين العلماء وأشد ارتباط بمنهجهم.

فالتعليل ركيزة منهجية دفعت العقل العربي إلى التطور والنضج، وعكست تفكير النحويين إزاء ظواهر اللّغة، وربطت أصالة العمل النحوي بنتائجه، بشكل لفت الانتباه إلى أمرين هامين هما:

- ضرورة توضيح السبب وراء الظواهر اللّغوية والقواعد النحوية بتبريرها وإساغتها.
- اتخاذ التعليل سندا عقليا وأثرا وضّاحا في التفكير النحوي.

2- بواعث التعليل النحوي:

لا شك أن قضية المنهج النحوي قد حظيت باهتمام الكثيرين قدامى ومحدثين، إذ لا نتصور تلقي الظاهرة اللغوية معزولة عن منهج يلتزم بالضوابط و يؤدي إلى النتائج المقبولة، فضلا عن أن المنهج اللّغوي _فيما يبدو_ له سمات خاصة تميزه عن غيره من النماذج، وحسبنا أن نشير إلى بعضها:[10]

- الالتزام بنصوص مرحلة تاريخية محددة، وهي محور الدراسة والتحليل ومناط استخلاص القواعد.
- الأخذ بفكرة الإطار المكاني للنصوص، وارتباط هذا الإطار بالبعد عن مواطن الاحتكاك الأجنبيّ.
- الأخذ بما هو شائع وصالح من ظواهر لبناء القواعد من ناحية، ثم تسويغ ما يخالف القواعد من نصوص من ناحية أخرى، ممّا أدى إلى التفكير في افتراضات عقلية في ضوء متطلبات القواعد، فكان التأويل عنصرا هاما من عناصر المنهج النحوي .
- الأخذ بمبدأ تعليل الظواهر، واعتبار هذا التحليل غاية ضرورية من غايات البحث النحوي.

وربما _تأسيسا على هذا_ قد تداعت كل البواعث العلمية لنشر فكرة التعليل، وتهيأت كل الأسباب الكافية لاتخاذها سبيلا عقليا تنعقد على أساسها أهداف تحليل الظواهر، والتي نذكر منها :[11]

1- طبيعة العقل الإنساني:

يعد التفكير في الأسباب الكامنة وراء الظواهر من ضروريات المعرفة العلمية مهما كان نوعها، لذلك يسعى التفكير النحوي إلى اخضاع الظواهر للتعليل الذي يجري فيه "مجرى الدم من الإنسان، إذ التمس النحاة في العلّة أن تكون محاميا يدافع عن قواعدهم، ولا سيما القواعد المعيارية منها ... يقوم على الأثر الذي يحدثه المؤثر"[12].

فلم يقف العقل العربي عند تقعيد الظواهر، وإنما امتد لتفسيرها، وكان ذلك "نقطة البداية لاتصال البحث النحوي وتوفره على خلق نظريات تقعيدية وتفسيرية معا، فمثلا في ظاهرة الإعراب انتقل البحث من مجال التقنين الذي يهدف أساسا إلى تحديد صور التصرف الإعرابي إلى دراسة الصلة بين الحركة الإعرابية والمعنى، بحيث تصور النحاة أنه لا بد من وجود علاقة ما تربط بين الحركة المعينة وبين مدلول الكلمة المتحركة بهذه الحركة، ليس وظيفيا فحسب، بل دلاليا أيضا"[13].

وهذا الجانب من التفكير الذي وصل إليه العقل العربي في تسييره الظواهر اللّغوية، إنما كان بمجيء الإسلام الذي عمق النظر في مختلف المجالات، عملا بعموم قوله تعالى:﴿**قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾[14] وقوله أيضا﴿**وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ**﴾[15]، ولهذا وجد هذا العقل نفسه مدفوعا إلى النظر والتدّبر والفهم والتبصّر....،وذلك لحماية المعارف من التشكيك والضياع .

2- البحث عن أسرار حكمة الواضع:

لا شك أنّ اللّغة العربية تسير وفق نظام محكم وعلاقات تركيبية خاصة يؤطرها ويوضّحها ويفسّرها التعليل، الذي توخى النحاة من خلاله "إثبات فضل العربية ودقة أحكامها"[16]،إذ أدرك النحاة أن مراعاة قواعد التركيب بين أجزاء الكلام لم يكن إلا لحكمة أرادها واضع اللّغة، وسرّ مغيب سيّر وفقه الأوضاع والمباني، لذلك مضى النحاة إلى التقعيد والتحليل والإبانة عن الغرض من التعليل الذي يضفي على الدراسة نوعا من التنظيم على لغة العرب.

ولقد أكد ابن جنى على أهمية العلل في كتابه الخصائص، إذ عقد بابا عنوانه :باب في أن العرب قد أرادت من العلل والأغراض ما نسبناه إليها وحملناه عليها، يقول: "أعلم أنّ هذا موضوع في تثبيته وتمكينه منفعة ظاهرة، وللنفس به مُسْكَة وعصمة، لأن فيه تصحيح ما ندعيه من العرب، من أنها أرادت كذا لكذا، وهو أحزم لها، وأجمل بها وأدل على الحكمة المنسوبة إليها[17].

فالنص إحالة إلى إيراد التعليل وشق السبيل لمعرفة حكمة العربية وفضلها على سائر اللغات الأخرى، وبصورة أدق فضل القرآن الكريم على العربية في مختلف مستوياته.

طبيعة النحو الاجتهادية:

الواقع أنّ للتعليل جذورا عميقة "تعود إلى تفتق النحو العربي على شكل قواعد أولية بسيطة عند الجيل الأول من النحاة "[18]وقد تطور وتعقد في مسالكه، حتى استطاع "الخليل أن يضعه في مكانه الرفيع في أصول البحث النحوي، بفلسفته له وتبريره لضرورته وحثه على ملاحظته، ثم أمكنه بعد ذلك أن يمدّ نطاقه، وأن يوسّع من دائرته، فشمل الموجود والمفروض معا[19].

معنى ذلك أنّ التعليل اجتهاد نحويّ خاص، ففي تعليل القواعد المستنبطة من الوصف، يقوم النحوي بتفسيرها وفق مؤثرات مختلفة، منها قدرته العقلية، وثقافته ومذهبه الدينيّ، وخبرته اللّغوية، وقد ادرك النحاة أنّ وضع القواعد مبنيّ على استقراء جزئي، لذلك فالتعليل تعويض عن نقص الاستقراء من جهة، وبرهنة على صحة القواعد من جهة أخرى.

3- سيرة التعليل بين المفهوم والأنواع:

يعد التعليل أصلا من أصول النظر النحوي، الذي ارتضاه النحاة، وهم يعنون به "تفسير الظاهرة اللّغوية والنفوذ إلى ما ورائها، وشرح الأسباب التي جعلتها على ما هي عليه "[20]،وقد كان من لوازم التحليل النحوي للظواهر إثبات حكمة العرب، والكشف عن صحة أغراضهم ومقاصدهم طردا للقواعد وإحكاما للصناعة.

وجاء أيضا بمعنى القرينة التي "تقود إلى معرفة الحكم النحوي، لأنها سبب في إعطاء المحكوم عليه هذا الحكم، وبدونها لا يستحقه"[21]،ولأجل ذلك فإن التعليل شكل من أشكال تسويغ الأحكام وانسجام الظواهر "يبحث عن سر ظهورها بالكيفية التي عليها"[22].

فالتعليل ركيزة نحوية هامة، يلجأ إليها النحوي لتفسير أسباب وجود الظاهرة اللّغوية، وهي ذات "ارتباط تلازمي بمعنى السببية وتطمح إلى التفسير الشامل والموضوعي للظاهرة اللسانية، وتحليل الأسباب التي جعلتها على ما هي عليه، فيما يعرف اليوم بنظام اللّغة"[23].

والواضح أن التعليل يضطلع بالتفسير مركزا على الأسباب الآيلة معرفة مفاصل اللّغة وأسرارها، لذلك يمكن تقسيم التعليل حسب نوع المعلل إلى:[24]

أ-تعليل النطق:

وهذا-فيما يبدو- كثير في اللّغة، فهو التعليل الذي يقدّم تفسيرا لنطق النص على هيئة بعينها، مستخدما القاعدة أداة له، فليست القاعدة سوى القانون المفسّر لظاهرة نطقية مطردة عند العرب.

والحقيقة أن استخدام النص كمسموع أو منطوق يختلف بحسب المطلب والغاية معا، ذلك أنّ تعليل اللّغوي "حين يستخدم المسموع كما هو دون تدخل منه ليس تعليلا صوريا، فالسّمع يقدّم المادة العلمية فقط لكل من أراد دراسة اللّغة، فمن شاء أن يستخدم هذه المادة في استنباط العلل سوف يجد ما يبتغيه، أما من أراد أن يقف عند حدود هذه المادة يبقى في نطاق الوصف المباشر للّغة"[25].

ومن نماذج هذا التعليل قول جلال الدين السيوطي معربا قوله تعالى: ﴿**لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ**﴾[26]، وأما "قوله: والمقيمين الصلاة ففيه أيضا وجه: أحدها أنه مقطوع إلى المدح بتقدير أمدح لأنه أبلغ، الثاني أنه معطوف على المجرور في يؤمنون بما أنزل إليك أي ويؤمنون بالمقيمين الصلاة وهم الأنبياء، وقيل بإجابة المقيمين، الثالث أنه معطوف على قبل أي ومن قبل المقيمين فحذفت قبل وأقيم المضاف إليه مقامه. الرابع أنه معطوف على الكاف في قبلك. الخاص أنه معطوف على الكاف في إليك، السادس أنه معطوف على الضمير في منهم"[27].

على هذا النحو تستخدم القاعدة وسيلة لتعليل نطق النص على هذه الهيئة، بمعنى أنها تشرح وتفسر النمط التركيبي الذي جاء عليه النص والغرض من ذلك التفسير التعليم.

2- تعليل القاعدة:

تبين لنا من القول السابق، أن القاعدة النحوية –وهي العلة الأولى- ليست سوى القانون الاستقرائي الذي يفسر الظاهرة النطقية بهدف تعليمي خاص، أما القسم الثاني من التعليل فهو تعليل القاعدة، ولذلك يسميه ابن السراج علة العلة[28]، ويسميه الزجاجي بالعلة القياسية[29]، ويسميه ابن مضاء بالعلل الثواني والثوالث[30].

فعلة العلة إذن تعليل للقاعدة، حيث لا يكتفي النحاة في أغلب الأحيان بتقديم علة نطق النص على هيئة بعينها، وإنّما يعللون لهذه العلة، ومن ذلك تعليل الزجاجي للنصب بعد إنَّ بأنها «وأخواتها ضارعت الفعل المتعدي إلى مفعول، فحُمِلت عليه فأُعمِلت إعماله لَمّا ضارعته، فالمنصوب بها مشبه بالمفعول لفظا، والمرفوع بها مشبه بالفاعل لفظا، فهي تشبه من الأفعال ما قدم مفعوله على فاعله، نحو: ضرب أخاك محمد وما أشبه ذلك»[31].

3- تعليل الخروج عن القاعدة:

قد توحي طبيعة العلاقة بين النصوص والقواعد إلى ذلك الانسجام النحوي المطلوب مراعاة لخصوصية التفكير إزاء مادة التقعيد، ومن ثم رأى النّحاة أن الكلام العربي ذو نموذج معروف، لكن قد يأتي هذا الكلام على غير الأصل، وفي هذه الحالة يصير التعليل لهذا الضرب من النصوص مطلبا ضروريا للمحافظة على صحة القواعد وخاصية النصوص، لذلك نسب النحاة هذا الخروج إلى الضرورة الشعرية أو اللهجات، لكنهم في أكثر الحالات كانوا يعللون لهذا الخروج عن القاعدة.

ومن نماذج هذا الضرب ما أورده سيبويه في مناقشة قول العرب: (هذا جُحْرُ ضَبٍّ خربٍ)[32]، إذ يقول: "ومما جرى نعتا على غير وجه الكلام "هذا جُحْرُ ضَبٍّ خربٍ"، فالوجه الرفع، وهو كلام أكثر العرب، وهو القياس، لأن الخرب نعت الجُحْر والجُحر رُفع. ولكن بعض العرب يجره. وليس بنعت للضب، ولكنه نعت للذي أضيف إلى الضبّ، فجروب لأنه نكرة كالضب، ولأنه في موضع يقع فيه نعت الضب، ولأنه صار هو والضب بمنزلة اسم واحد، ألا ترى أنك تقول: هذا حب رمانٍ، فإذا كان لك قلت: هذا حب رماني، فأضفت الرمان إليك، وليس لك الرمان، إنما لك الحب"[33].

فقد علل سيبويه استبدال العلامة الإعرابية بعلامة أخرى بالجوار، بينما رده ابن جني إلى القاعدة بالقول بالحذف، فالأصل عنده: هذا جُحْر ضَبٍّ خربٍ جُحْرُهُ[34].

4- أشكال الأداء التعليلي في الخطاب القرآني:

*1- التعليل باللام: قد تفيد بعض حروف المعاني التعليل كما هو الحال مع اللام، وذلك حسب السياق القرآني الذي ترد فيه، ففي قوله تعالى:﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**﴾*[35].

نجد أن اللام في الفعل (يظهره) أفادت التعليل، بذكر السبب الذي ارتبط بإرسال الله تعالى رسوله بدين الإسلام، ليجعله عاليا على كل الأديان، مهيمنا على سائر الملل، غالبا عليها بالحجة والبرهان، والعدل والإحسان[36].

وقال تعالى: ﴿**إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾[37]، فالمعنى الذي تنتهي إليه اللام في (الذي) هو تخصيص العبودية للرب الواحد، الأحد الذي خلق السماوات والأرض، وهو لب الدين وأساسه؛ توحيد المعتقد والمنهج والبراءة من الأعداء[38]، ولذلك أفادت لام التعليل الإرضاء والطاعةوقوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا**﴾[39].

ففي الآية الكريمة نفي للغفران والهداية، وهي اللطف على سبيل المبالغة التي تعطيها اللام، والمراد بنفيها (المغفرة والهداية) لهؤلاء بسبب نفي ما يقتضيها وهو الإيمان الخالص الثابت عندهم[40]، فاللازم المقترنة بالفعل المضارع المنفي بـ(لم) هي لام الجحود التي سيقت في أسلوب النفي للدلالة على بلاغة معنى النفي في الآية الكريمة، ولا شك أنها أفادت دلالة النفي على أنّ اسم كان لا يصدر منه خبرها، فالله تعالى لن يغفر ذنوب المنافقين الذين زادوا كفرا إلى كفر وأُدْمِنُوا على الردة والمخالفة.

2- الفاء السببية: قد تأتي الفاء في أحد استعمالاتها سببية بمعنى لام السببية عندما يكون ما قبلها سببا لما بعدها بشرط أن يتقدم عليها أمر أو نهي أو استفهام أو تخضيض ...[41]، في قوله تعالى: ﴿**قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (34) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ**﴾[42].

فالفاء في الآية الكريمة سببية بمعنى اللام، أي: لأنك رجيم، فقد دخلت الفاء على السبب، وسبقها (الأمر بالخروج)، والمعنى: الأمر بإخراج إبليس اللعين من الجنة، لكبره وحسده، فالمتكبر والحاسد محروم من كل خير[43].

3- كي التعليلية: قد تأتي (كي) للتعليل معنى في بعض استعمالاتها[44]، إذ نجد ما بعدها علة لما قبلها، خلافا لمن جعل التعليل من اللام المقدرة، والراجح عند فاضل السامرائي أنها للتعليل[45]. ففي قوله تعالى: ﴿**وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (29) هَارُونَ أَخِي (30) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (31) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (32) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (33) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا**﴾[46].

فالمعنى المستفاد من الآية هو الدعاء، فقد اختار الله موسى لرسالته، فدعا موسى ربه بأن يجعل له مساعدا يعينه على حمل الأمانة، وهذا المعين هو أخوه هارون الذي يقوّيه حتى يتمكن من تبليغ الدعوة معه[47].

فالتسبيح والذكر الكثيران هما علة وغرض للدعاء، لذلك دعا موسى ربه بأن يكون أخوه شريكه في الرسالة حتى يتعاونا على عبادة الله وذكره ابتغاء مرضاته[48].

4- حتى التعليلية: ترد (حتى) حرفا للتعليل في الاستعمال، فتكون بمعنى (كي) إذا جاء ما قبلها سببا وعلة لما بعدها، والجدير بالملاحظة أن ما بعد (حتى) غاية غالبا[49] أي: أن الفعل الذي يقع قبل (حتى) التعليلية إنما هو لتحقيق ما بعدها.

ففي قوله تعالى: ﴿**وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ**﴾[50]، تكون (حتى) بمعنى (كي)، فهي للتعليل والمعنى: قاتلوا من حارب الاسلام وعَبَدَ الأصنام، حتى لا تبقى لهم قوة، فالإسلام لا ينصر إلا بالجهاد[51].

ويرى أبو البقاء العكبري أن (حتى) قد تكون للغاية في الأمر بقتالهم قصد إزالة الفتنة وإعلاء كلمة الإسلام إلى أن يضمحل الشرك ويكون الدين لله خالصا[52].

5- التعليل بالمفعول لأجله:

المفعول لأجله –عند النحاة- ما أفاد تعليلا من المصادر بشروط معينة[53]، منها: أن يكون مصدرا قلبيا متحدا مع فعله في الزمان والفاعل ومخالفا له في اللفظ[54]، ويرى فاضل السامرائي أنه لا يشترط في المفعول لأجله إلا كونه مصدرا فضله مفيدا التعليل[55]، نحو قوله تعالى: ﴿**يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ**﴾[56]، فهؤلاء يخشون الصواعق مخافة وحذر الموت، فالتعليل إنما وقع بالاسم وهو أقوى في هذا الموضع الذي جاء عليه سياق الآية الكريمة.

ويتضح أسلوب التعليل أيضا في قوله تعالى: ﴿**أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ**﴾[57]، والمعنى أن الله سبحانه وتعالى أحلّ للمؤمنين الانتفاع بما يُصاد في البحر، أي: أحل لهم ذلك تمتيعا لهم وهو في المفعول له[58]، فالمتاع سبب وعلة دالة على الغرض، الذي من أجله أحلّ الله للمؤمنين صيد البحر، لذلك وضّح الله عز وجل العلة فقال: متعا لكم، وهذا ما يفهم أيضا من قوله تعالى:

﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا(32) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾[59]. فإن الاسم المنصوب (متاعا) دال على بيان سبب تثبيت الجبال كالأوتاد للأرض، وجعل ذلك كله منفعة للمؤمنين ومتاعا لأنعامهم[60].

ويظهر المراد من المفعول له في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾[61] فابتغاء مفعول له مضاف إلى الفتنة، وقد ذكر الله تعالى علة الإتباعفي الآية، وهو طلب الفتنة وطلب تأويله تأويلا باطلا بما يوافق باطلهم، فهم لا يهتدون إلى التأويل الذي يطابق الحق، وإنما يؤولون بما يشتهون[62].

6- إفادة اسم الإشارة معنى التعليل:

يفيد اسم الاشارة في بعض السياقات القرآنية التعليل في نحو قوله: ﴿ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[63]، إذ أشار الله عز وجل إلى أولئك الذين ينقضون العهد ويقطعون الصلة، ويسعون في الأرض فسادا فهم الخاسرون الذين خسروا أنفسهم وحياتهم وسعادتهم، وبيّن خسرانهم بسبب تلك الأوصاف التي اتصفوا بها، لذلك استحقوا الخسارة الدائمة في الدارين[64]، وقد بيّن ذلك باسم الإشارة الذي أفاد تعليلا بالسبب.

7- التعليل بجملة إنّ ومعموليها:

ومما سيق للتعليل في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾[65]، إذ بيّن الله تعالى أن الذين يلتزمون الأوامر المنزلة من عند الله -عز وجل- ويعملون بما فيها، ويجتنبون ما حذر الله فأولئك صالحون مصلحون، والله لا يضيع ثواب المصلحين، ولا يبطل سعيهم وسوف يحفظ لهم أجورهم، وبهذا توضح جملة إن ومعموليها (إنا لا نضيع أجر المصلحين) ما سيقت له، فقد جاءت معللة لما قبلها، فالله تعالى لا يضيع أجر هؤلاء الصالحين بسبب تمسكهم بالكتاب العظيم ومداومتهم على الصلاة في أوقاتها[66].

على هذا الأساس، تتنوع أشكال التعليل في السياق القرآني، لتؤدي وظيفتها الدلالية التي تستنبط بالنظر الحصيف في كتب التفسير، وهذا المسلك يجعل الظاهرة التعليلية في القرآن الكريم ظاهرة خاصة لا تعتمد الفرضيات والجدال كما هو في الصناعة النحوية، وإنما تلازم السياقات المخصوصة بالأحكام، لذلك نجد ملامح التعليل في الجمل القرآنية لا تظهر إلا بالتدبر في معانيها وأغراضها.

الهوامش:

1- مدخل إلى تاريخ النحو العربي، د/علي أبو المكارم، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 2006، ص :15.

2- اللّغة بين المعيارية والوصفية، د/تمام حسّان، عالم الكتب:نشر، توزيع طباعة (القاهرة)، ط1، 2000،ص09.

3- العلّة النحوية، نشأتها وتطورها، د/مازن المبارك، (بيروت، لبنان)، ط2، 1971، ص 51.

4- سورة ص، الآية:28.

5- سورة الرعد، الآية:03.

6- أصول النحو عند ابن جنّي (دراسة لسانية في كتابية الخصائص والمحتسب)، د/رشيد حليم، دار قرطبة للنشر والتوزيع، د ط، 2010، ص 169.

7- أصول التفكير النحوي، د/علي أبو المكارم، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، (القاهرة)، ط 1، 2006، ص 150.

8- التعليل اللّغوي عند الكوفيين مع مقارنته بنظيرة عند البصريين (دراسة ابستمولوجية د/جلال شمس الدين، الناشر:مؤسسة الثقافة الجامعية، د ط، د ت، ص 10.

9- الإيضاح في علل النحو، أبو القاسم الزجاجي، تح، مازن المبارك، مكتبة دار العروبة، مطبعة المدني، المؤسسة السعودية بمصر، د ط، 1959، ص:65، 66.

10- ينظر، مدخل إل تاريخ النحو العربي، د/علي أبو المكارم، ص 212_217.

11- ينظر: نظرية التعليل في النحو العربي بين القدماء والمحدثين، د/حسن خميس سعيد الملخ، دار الشروق للنشر والتوزيع (عمان _الأردن) ط1، 2000، ص 95_99.

12- نظرية الأصل والفرع في النحو العربي، د/حسن خميس سعيد الملخ، دار الشروق للنشر والتوزيع (عمان _ الأردن) ط1، 2001،ص159.

13- مدخل إلى تاريخ الوبي، د/علي أبو المكارم، ص 124.

14- سورة يونس، الآية 101.

15- سورة الذاريات، الآية :21.

16- ابن السرّاج ومذهبه في النحو (دراسة في كتاب الأصول)د/أحمد مطر العطية، دار الصحوة للنشر التوزيع، ط1، 2009،ص 202.

17- الخصائص، ابن جنّى (أبو الفتح عثمان)،تح، محمد علي النجار، المكتبة العلمية، دار الكتب المصرية، ج1، ص:237.

18- نظرية الأصل والفرع في النحو العربي، د/حسن خميس سعيد الملخ، ص: 159.

19- مدخل إلى تاريخ النحو العربي، د/علي أبو المكارم، ص: 114.

20- أصول النحو العربي، د/محمد خير الحلواني، مطبعة الشرق (لينوتيب)،د ط، 1979،ص: 108- 110 .

21- التعليل النحوي في الدرس اللّغوي القديم والحديث، خالد بن سليمان بن ممنا الكندي دار المسيرة للنشر والطباعة والتوزيع، ط1، 2007، ص:125.
22- المرجع نفسه، ص: 141.
23- أصول النحو عند ابن جنى دراسة لسانية في كتابية الخصائص والمحتسب، دار رشيد حليم، ص: 169.
24- ينظر الأسس المنهجية للنحو العربيّ، دراسة في كتب إعراب القرآن الكريم، د/حسام أحمد قاسم، دار الآفاق العربية (القاهرة)، ط1، 2007، ص: 366- 373.
25- التعليل اللّغوي عند الكوفيين مع مقارنة بنظيره عند البصريين، د/جلال شمس الدين، ص: 38.
26- النساء، 162.
27- الاتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع (بيروت، لبنان)، 2008، ج1، ص: 267.
28- ينظر: الأصول في النحو، ابن السراج، تح: د/ عبد الحسين الفتلى، مؤسسة الرسالة، ط1، 1985، ج1، ص: 35.
29- الإيضاح في علل النحو، الزجاجي (أبو القاسم)، تح: مازن المبارك، الناشر: مكتبة دار العروبة، مطبعة المدني، المؤسسة السعودية بمصر، 1959، ص: 64.
30- ينظر: الرد على النحاة، ابن مضاء القرطبي، تح: محمد إبراهيم البناء، ط1، 1979، ص: 127.
31- الإيضاح في علل النحو، الزجاجي، ص: 64.
32- الكتاب، سيبويه (أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر)، تح: عبد السلام هارون، الناشر: مكتبة الخانجي (القاهرة)، ط4، 2004، ج1، ص436.
33- المصدر نفسه، ج1، ص: 436.
34- ينظر، الخصائص، ابن جني، ج1، ص: 217.
35- التوبة، الآية: 33.
36- ينظر: التفسير الميسر، د/ عائض بن عبد الله القرني، مكتبة العبيكان للطباعة والنشر (الرياض)، ط4، 2010، ص: 232.
37- الأنعام، الآية: 79.
38- ينظر: التفسير الميسر، د/ عائض بن عبد الله القرني، ص: 172.
39- النساء، 137.
40- ينظر: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الزمخشري (أبو القاسم محمود بن عمر الخوارزمي)، اعتنى به ورتب حواشيه، محمد السعيد محمد، المكتبة التوفيقية (القاهرة)، ط1، 2012، ج1، ص: 590.
41- معجم الإعراب والإملاء، د/ إميل بديع يعقوب، دار الشريعة للطباعة والنشر، دط، دت، ص: 295.
42- الحجر الآيتين: 34- 35.
43- ينظر: التفسير الميسر، د/ عائض بن عبد الله القرني، ص: 312.
44- ينظر، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام الأنصاري، راجعه: سعيد الأفغاني، حققه وعلق عليه: د/ هارون المبارك، محمد علي حمد الله، دار الفكر للطباعة والنشر (بيروت، لبنان)، ط1، 2007، ج3، ص: 141.
45- ينظر: معاني النحو، د/ فاضل السامرائي، دار إحياء التراث العربي (بيروت، لبنان)، ط1، 2007، ج3، ص: 141.
46- طه، 29- 34.
47- ينظر: التفسير الميسر، د/ عاض القرني، ص: 367، 368.
48- ينظر: الكشاف، الزمخشري، ج3، ص: 60، 61.
49- ينظر معجم الإعراب والإملاء، د/ إميل يعقوب، ص: 186.
50- البقرة، 193.
51- ينظر: التفسير الميسر، د/ عائض القرني، ص: 43.
52- ينظر التبيان في إعراب القرآن، العكبري (أبو البقاء عبد الله بن الحسن العكبري)، تح: علي محمد البجاوي، دار إحياء (القاهرة)، 1976، ج1، ص: 152.
53- ينظر: معاني النحو، د/ فاضل صالح السامرائي، ج2، ص: 192.
54- ينظر: القواعد الأساسية للغة العربية، أحمد الهاشمي، تح: محمد أحمد قاسم، المكتبة العصرية (بيروت)، 2002، ص: 201.
55- ينظر: معاني النحو، د/ فاضل صالح السامرائي، ص: 192.
56- البقرة، 19.
57- المائدة، 96.
58- ينظر، الكشاف، الزمخشري، ج1، ص: 694.
59- النازعات، 32، 33.
60- ينظر: التفسير الميسر، د/ عائض القرني، ص: 702.
61- آل عمران، 07.
62- ينظر: الكشاف، الزمخشري، ج1، ص: 351.
63- البقرة، 27.
64- ينظر: التفسير الميسر، د/ عائض القرني، ص: 11.
65- الأعراف، 170.
66- ينظر: التفسير الميسر، د/ عائض القرني، ص: 210.